المحاضرة الأولى: بين يدي علوم القرآن؛ مفهوما وموضوعا ونشأة

تعريف "علوم القرآن"

ولتعريف علوم القرآن كفن مستقلّ وعلم قائم بذاته، لا بد قبل ذلك من تفكيك هذا التركيب الإضافي ورصد التعريف بعناصره عند أهل هذا الفن:

1- **تعريف العلوم** :

تعريف العلوم في اللغة : جمع عِلْمٍ من عَلِمَ يَعْلَمُ علمًا. قال ابن فارس في المقاييس يبيّن أصل معاني هذه المادة: "العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدلّ على أثرٍ بالشيء يتميّز به عن غيره" وقد ذكروا من معاني هذه الكلمة التي لا تخرج في مجملها عن الأصل الذي ذكره ابن فارس المعرفة واليقين والشعور والإتقان والإخبار والشقّ والبروز واللاّفت والأثر والمنار والجبل الطويل والعلامة . وأكثر ما تستعمل هذه المادة في المعنيين الأولين: المعرفة واليقين ولهذا قالوا أيضا في تعريفه هو نقيض الجهل...[1]

تعريف العلم في الاصطلاح: أما في الاصطلاح فقد اختلفت تعريفات العلم والعلوم تبعا لاختلاف التخصصات التي ينطلق منها المعرِّف، فهي من اختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات.

عرّفه علماء الشريعة بقولهم: "العلم بالله تعالى وما يتعلق به من جليل صفاته وحكيم أفعاله، ومعرفة حلاله وحرامه." يلاحظ في هذا التعريف أنّ أصحابه إنّما عنوا في تعريفهم ما يتعلق بعلوم الدين الإسلامي بشقيه العقدي العلمي والتشريعي العملي، لأنّه مجال اختصاصهم وميدان عملهم .

وعرّفه المتكلمون بقولهم: " صفة تنكشف بها الأشياء لما قامت به".

بينما هو عند الفلاسفة والحكماء: "صورة الشيء الحاصلة في العقل ".

وهو عند الماديين والتجريبيين: "خصوص اليقينيات التي تستند إلى الحسّ".

فانظر كيف حصر الفلاسفة العلم بما يحصل في العقل لأنّ سبيل العلم والمعرفة عندهم يختصّ به دون غيره من الوسائل بينما خصّه المادّيون بالحسّ دون سواه فلا يقع مسمى العلم عندهم إلاّ على ما تدركه الحواس ويخضع للتجريب والاختبار والمعاينة ولم يخصّه المتكلمون بوسيلة دون أخرى فهو يقع عندهم بالوحي والعقل والحواس...

وقد يطلق العلم ويقصد به الملكة التي بها تدرك وتحصّل المسائل أو ملكة إدراكها أو استرجاعها واستحضارها...

---

[1] انظر مقاييس اللغة لابن فارس. دار الفكر ص689، مجمل اللغة له، دار الفكر ص480. أساس البلاغة لجار الله الزمخشري، دار الفكر ص434. العين للخليل بن أحمد، إحياء التراث العربي ص675-676. المصباح المنير للفيومي دار لبنان ص401-402. مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، مؤسسة الرسالة ص162

والذي يعنينا ويهمنا من هذه التعريفات كلّها هو اصطلاح العلم عند علماء الجمع والتدوين، وهو عندهم "جملة من المسائل المضبوطة بجهة واحدة" سواء كانت هذه الجهة مادة العلم أو غايته أو منهجه[2]..

2- تعريف القرآن :

تعريف القرآن في اللغة: اختلف فيه أهل العلم من جهات عدّة أوّلا من جهة كونه مهموزا أو لا ومن جهة كونه مصدرا أو صفة ومن جهة كونه جامدا أو مشتقا وقد تعدّدت المذاهب فيه والآراء انطلاقا من هذه الجهات والحيثيات الثلاث حتى وصلت إلى ما يقارب العشرة وها هنا تفصيل بعض هذه المذاهب منسوبة إلى أصحابها:

– الحِّياني والجوهري والراغب الأصفهاني وابن الأثير يرون بأنّه مهموز وأنّه مصدر من قرأ قرأت قرآنا سُمِّي به المقروء من باب تسمية اسم المفعول بالمصدر[3] ، يشهد لهم قوله تعالى: (وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهودا) – الإسراء 87– فقد ذكر غير واحد من المفسرين أنّ المقصود بالقرآن ها هنا القراءة ومثله قول حسان في عثمان رضي الله عنهم أجمعين :

ضحَّوا بأَشْمَطَ عُنْوانُ السُّجود بهِ يُقَطِّعُ الليل تسبيحا وقُرآناً. (أي قراءةً)[4]

– بينما يرى الزجاج وأبو عبيدة ورواية عن قطرب وذكره الماوردي في تفسيره والراغب في مفرداته أنّه مهموز ولكنه وصف على وزن فُعْلان وليس مصدرا وهو عنده مشتق من القُرء بمعنى الجمع ، قال أبو إسحاق القُرء في اللغة بمعنى الجمع. قال الماوردي ولهذا سمي قُرء العِدّة قرءاً؛ لاجتماع دم الحيض في الرحم، وعن قطرب: قرأت الماء في الحوض: أي جمعته، وقرأت القرآن: لفظت به مجموعا . وقال أبو عبيدة: سمي بذلك لأنّه جمع السور بعضها إلى بعض. وقيل لأنّه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض وعن الراغب قول بعضهم: سمي قرآنا لكونه جامعاً لثمرات الكتب بل لجمعه ثمرة جميع العلوم[5].

– وقال قطرب في روايته الثانية بالهمز كذلك ولكنه عنده من الإظهار والبيان، أخذه من قول العرب: ما قرأتْ الناقة سلاً قطّ، أي ما ألقت ولا رمت بولدٍ. ووجه التشبيه بين الإطلاقين والتعبيرين: أنّ قارئ القرآن

---

[2] انظر مناهل العرفان ص15–16. مدخل إلى دراسة القرآن لأبي شهبة ص16–17

[3] انظر الصحاح (قرأ) 1\65 المفردات (قرأ) 668 النهاية في غريب الحديث والأثر (قرأ) 4\30 الإتقان 1\146–147

[4] علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير ص33

[5] المرجع نفسه 34–35

يلفظه ويلقيه من فمه، فسمي قرآناً[6].

– ونسب للأشعري قوله بأنه غير مهموز وأنّه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه[7].

- ونسب الزركشي للجوهري أنّه غير مهموز ومشتق من القَرْي وهو الجمع ومنه قولهم قريتُ الماءَ في الحوضِ إذا جمعته فيه[8]. قال السمين الحلبي: "وهو غلط لأنّهما مادتان متغايرتان"[9] .

– ونسب للفراء والقرطبي قولهم بعدم الهمز وبالاشتقاق من القرائن؛ لأنّ الآيات يصدق بعضها بعضا وتتشابه[10]. قال الزجاج معترضا على القول بعدم الهمز : "هذا سهو، والصحيح أنّ ترك الهمزة فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها"[11].

– ومذهب الإمام الشافعي أنّ لفظ القرآن مرتجل جامد غير مشتق فهو اسم علم غير مهموز خاص بكلام الله مثل التوراة والإنجيل وليس مأخوذا من لفظ قرأ لا مصدرا ولا وصفا بدليل أنّه لا يسمى كلّ مقروء قرآنا إلاّ كلام الله وقد اختار الإمام السيوطي هذا الرأي. قال الأستاذ محمد صفاء معلقا ومتعقبا مذهب الشافعي:" ويعترض على هذا الرأي بأنّ العَلَم المرتَجل نادر جداً، وأنّ الغالب في الأعلام أنّها منقولة، بل ذهب سيبويه إلى أنّ الأعلام كلّها منقولة، كما يعترض عليه بأنّ معظم القراء السبعة قرأوا لفظ (القرآن) بالهمز"[12].

– الخلاصة :من خلال هذه الأقوال جميعها وترجيحات جلّ من ناقش المسألة[13]: فإنّ الراجح في لفظ القرآن أنّه مشتق سواء قلنا بالوصف أو المصدرية وأصل اشتقاقه مادة (ق ر أ) التي من أهمّ معانيها التلاوة والجمع. ثمّ غلب على كلام الله عزّ وجلّ المتواتر المجموع بين دفتي المصحف حتى صار كالعَلَم عليه، إذا أطلق اللفظ توجّه إليه دون سواه، أما مسألة الهمز من عدمه فالأمر متعلق والله أعلم بلغات العرب فبعضهم يحقق الهمز على الأصل وبعضهم الآخر يسهّله للتخفيف، ونقل الهمز في لفظ القرآن الكريم من هذا التسهيل وهو لغة الحجاز والشافعي عليه رحمة الله مكي حجازيّ كما هو معلوم...

تعريف القرآن في الاصطلاح :

---

[6] الإتقان 1\147

[7] البرهان 1\374 الإتقان 1\146

[8] البرهان1\373

[9] علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير35 – 36

[10] الإتقان 1\146- البرهان1\374

[11] علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير 37

[12] علوم القرآن بين البرهان والإتقان ص38

[13] علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير 39 مباحث في علوم القرآن لمناع القطان 15 دراسات في علوم القرآن الكريم أ\د. فهد الرومي 21 علوم القرآن بين البرهان والإتقان 20 المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبي شهبة ص18....

لقد عرّف القرآن – كما رأينا – بتعريفات كثيرة وهذه التعريفات كلها تصب في قالب واحد لكن كل واحد من أهل العلم يلحظ ملحظاً معيناً في تعريف القرآن الكريم لا يلحظه الآخر, والتدقيق في التعريفات وإعطاؤها أكثر مما تستحق ليس من طريقة السلف لأن السلف – رحمهم الله– كانوا يُعنون بالحقائق أكثر من التعريفات. فالتعريف إنما يراد به التوصل إلى معرفة حقيقة الشيء ولذلك كان السلف يعرّفون بالمثال أحياناً ولا يضطرون إلى التعريف الذي يُعرف عند المناطقة بالحدّ بمعنى أن يكون التعريف جامعاً لأجزاء المحدود مانعاً من دخول غيره فيه وعليه فنحن نختار هذا التعريف الذي نراه سهلاً وينطبق على القرآن الكريم انطباقاً جيداً.

فنقول في تعريف القرآن: **"هو كلام الله المنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم– المتعبد بتلاوته"**. هذا التعريف من عادة العلماء – رحمهم الله– أنهم إذا ذكروا تعريفاً للشيء يشرحون التعريف ويذكرون محترزاته فدعونا ننظر إلى شرح هذا التعريف وذكر محترزاته حتى نبين أنه منطبق على القرآن ولا يدخل فيه غيره.

فأما كلمة "كلام الله المنزل على محمد", "كلام الله": خرج بهذه الكلمة كلام الخلق من الملائكة والأنبياء والإنس والجن وغيرهم فإن كلام هؤلاء ليس هو كلام الله تعالى.

العبارة الثانية: من هذا التعريف "المنزل" خرج بهذا كلام الله – سبحانه وتعالى – الذي لم ينزله مما استأثر الله بعمله أو مما ألقاه على ملائكته للعمل به.

العبارة الثالثة: "على محمد– صلى الله عليه وسلم" وهذا خرج به ما أنزل على غير محمد – صلى الله عليه وسلم –من الأنبياء السابقين فقد أنزل الله – سبحانه وتعالى – على إبراهيم صحفاً وأنزل على موسى التوراة وأنزل على عيسى الإنجيل وأنزل على داود الزبور فهذه كتب أنزلت على رسل(أنبياء) سابقين ومحمد –صلى الله عليه وسلم– أنزل عليه القرآن .

وأما قولنا: "المتعبد بتلاوته" فقد خرج به الحديث القدسي فإن الحديث القدسي كلام الله – سبحانه وتعالى – لكنه ليس متعبداً بتلاوته, وحتى نوضح هذه العبارة توضيحاً تاماً نقول: إن مرادنا بقولنا "متعبد بتلاوته" أمران:

الأمر الأول: أنه الذي يقرأ به في الصلاة فالمقصود بقولنا: المتعبد بتلاوته أي الذي نقرأ به في الصلاة دون ما سواه فنحن في صلاتنا لا نقرأ عند القيام إلا بالقرآن الكريم وهو الذي تعبدنا الله – سبحانه وتعالى – بقراءته في الصلاة.

الثاني مما نريده بهذه الكلمة: أن الثواب على تلاوته لا يعدله ثواب؛ ولذلك قال النبي- صلى الله عليه وسلم: "من قرأ حرفاً من كتاب الله – سبحانه وتعالى – فله به حسنة والحسنة بعشرة أمثالها لا أقول: (الم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف" وهذا الحديث كما تعلمون فيه ثواب عظيم لمن تلا القرآن وقرأه، هذا الثواب لا يناله إلا من قرأ القرآن لأنه أعلى الكلام وأجله وأعظمه.

وهذا الكلام يقودنا إلى التفريق بين الحديث القدسي وبين القرآن الكريم وقد ذكر العلماء فروقاً كثيرة بين القرآن وبين الحديث القدسي[14].

الفرق الأول: فهو أن القرآن وقع به التحدي وحصل به الإعجاز، التحدي بأن يأتوا بمثل القرآن أو أن يأتوا بعشر سور من مثله أو يأتوا بسورة من مثله أو حديث مثله أما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي هذا هو الفرق الأول بين القرآن وبين الحديث القدسي.

الفرق الثاني: أن القرآن منقول كله بالتواتر فمن جحد حرفاً منه فقد كفر أما الحديث القدسي فمنه ما نقل بالتواتر وهو قليل جداً، ومنه – وهو الأكثر- ما نقل بالآحاد.. والحديث القدسي بآحاده منه ما هو صحيح ومنه ما هو ضعيف ومنه ما هو حسن أما القرآن فكله متواتر قد أجمع المسلمون على تلقيه وعلى تواتر جميع ما فيه من كلمات وحروف حتى الضبط والشكل فيه مجمع عليه ومتواتر فيه .

الفرق الثالث : أن القرآن من عند الله لفظاً ومعنى أما الحديث القدسي فمعناه قطعاً من عند الله – سبحانه وتعالى – وإلا فكيف ينسبه النبي – صلى الله عليه وسلم- إلى الله -جل وعلا أما لفظه فقد اختلف فيه لذلك النبي – صلى الله عليه وسلم- يقول في الحديث القدسي أو الرواة يذكرون في الحديث القدسي يقولون : عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه.

الفرق الرابع: القرآن لا ينسب إلا إلى الله فيقال قال الله – عز وجل- أما الحديث القدسي فيقال قال الله تعالى أو يقال قال النبي – صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه.

الفرق الخامس: أن القرآن لا يمسه إلا المطهرون وسيأتينا – إن شاء الله- بحث هذه القضية في أحكام المصحف في آخر هذه الدروس – بإذن الله جل وعلا- أما الحديث القدسي فيمسه الطاهر وغيره حتى الجنب يجوز له أن يمس الكتاب الذي فيه أحاديث قدسية أو الورقة التي فيها أحاديث قدسية.

أيضاً من الفروق أن القرآن تحرم روايته بالمعنى أما الحديث القدسي فيجوز لمن عرف معناه أن يرويه بالمعنى.

[14] بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، لموسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، عمان، ط2، 1416هـ/1996م، ص 20 وما بعدها.

ومن الفروق أيضا التي ذكرها العلماء بين القرآن والحديث القدسي أن القرآن له رسم خاص معروف وقد اختلفوا هل يجوز لأحد أن يكتب القرآن بغير الرسم الذي وضع عليه في عهد عثمان – رضي الله عنه – أو لا ؟ هذا سيأتينا – إن شاء الله – في مبحث خاص في رسم القرآن الكريم.

أما الحديث القدسي فيكتب بأي صفة شاء الناس إذا كان ذلك مطابقاً للفظ النبي- صلى الله عليه وسلم- والمعنى المراد منه.

ومن الفروق التي تذكر في ذلك المقام أن القرآن تشرع له الاستعاذة عند التلاوة والبسملة في أول السور بخلاف الحديث القدسي فلا يشرع فيه ذلك.

ثم إن القرآن تسمى الجملة منه آية وتسمى جملة الآيات منه سورة أما الحديث القدسي فلا يسمى شيء منه لا آية ولا سورة.

هذه جملة من الفروق بين الحديث القدسي والقرآن جر الحديث إليها ذِكْرُ الفرق بين القرآن والحديث القدسي من خلال التعريف الذي عرفنا به القرآن.

3- تعريف علوم القرآن علما على هذا الفنّ:

بعد أن عرفنا علوم القرآن أو عرفنا كل جزئية من هذا المركب وهو كلمة "علوم" وكلمة " قرآن" نأتي إلى تعريف علوم القرآن عَلَماً على هذا الفن المعروف عند أهل العلم وهو علوم القرآن:

ماذا نعني بعلوم القرآن؟ حقيقة لا بد أن نجلي هذه القضية في هذا المكان حتى نعرف العلم الذي سندرسه ولئلا يختلط علينا بعلوم أخرى ؛ لأن كلمة علوم القرآن يمكن أن تستعمل علماً على فن معين وهو الذي نريده في هذا المقام ويمكن أن تستعمل في معنى آخر، معنىً إضافياً وهو العلوم التي جاء بها القرآن فعلم العقيدة من علوم القرآن وعلم الفقه من علوم القرآن وعلم الفرائض من علوم القرآن لأن القرآن جاء بالدلالة عليها وعلم السلوك والتربية من علوم القرآن لأن القرآن حث على تعلمها وعلى العمل بها وبيّن قواعدها وأصولها فليس هذا هو المراد عندما نتحدث عن علوم القرآن إنما نريد به ما اصطلح عليه العلماء – رحمهم الله تعالى – ويمكن أن نختار هذا التعريف من بين تعريفات كثيرة ذكرها أهل العلم في هذا المقام فيقال في تعريف علوم القرآن:

"مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وجمعه وقراءاته وناسخه ومنسوخه ومكيّه ومدنيّه ونحو ذلك", فهي مجموعة البحوث التي تدرس في هذا العلم ليعرف من خلالها القرآن كيف نزل؟ كيف جمع؟ كيف كتب؟ كيف ضبط؟ كيف كان حال ناسخه ومنسوخه؟ كيف أمثاله وقصصه؟ كيف رسمه؟ كيف

تكون قراءته وعلى أي شيء؟ ما المراد بالأحرف السبعة؟ ونحو هذه المباحث التي يدرسها العلماء – رحمهم الله تعالى – في هذا الفن الخاص.

وبهذا نكون قد ميزنا بين أمرين مهمين: علوم القرآن علماً على فن معين وهو الفن الذي سنتفرغ لدراسته في هذا الفصل الدراسي- نسأل الله التوفيق والسداد , وعلوم القرآن بمعنى العلوم التي دل عليها القرآن أو وردت في القرآن أو حث القرآن على تعملها فهذه ليست مرادة لنا في هذا الدرس.

وعليه فعلوم القرآن"**هو العلم الذي يحتوي على ما يرتبط بالقرآن الكريم من بحوث مثل تأريخ نزوله، وجمعه وترتيبه، وأسباب النزول، والمحكم والمتشابه، واختلاف القراءات، والناسخ والمنسوخ، ووجه الإعجاز فيه، وغير ذلك**".